الباب الثاني

الفصل الأول

من سليم خان الثاني إلى قدوم الحملة الفرنسية واحتلالها مصر

دامت تلك المرحلة نحواً من مئتين وثلاثين عاماً تعاقب فيها على الحكم عشرون خليفة عثماني، أنجز بعضهم إنجازات ضخمة فحافظ على كيان الدولة، مجاهداً للحفاظ على سلامتها واستقرارها، بينما مال بعضهم الآخر إلى السكينة والدعة وتقاعس عن النهوض للدفاع عنها، مما أدى إلى ذهاب هيبتها في عيون الناس وإلى طمع جيرانها في أملاكها والانقضاض عليها.

خلف سليم الثاني أباه في ربيع الأول ٩٧٤هـ/ كانون الأول ١٥٦٦م، ولقد بدأ عهده بعقد الصلح مع النمسا بعد عامين، ثم مع ملك بولونيا وملك فرنسا، وقضى على حركة قامت باليمن ودخلت قواته صنعاء ١٥٦٩م بقيادة عثمان باشا.

ثم انطلقت القوات العثمانية إلى جزيرة قبرص التابعة للبندقية في مئة ألف جندي وفتحتها سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م.

لكن انهزمت القوات العثمانية أمام التحالف المكون من البندقية وإسبانيا وقوات البابا في معركة بحرية، وأحرقت السفن العثمانية وأغرقت ووقع ثلاثون ألفاً من القوات العثمانية في الأسر، ولكن في النهاية عقدت معاهدة

للصلح بين البنادقة والعثمانيين على أن تتنازل البندقية للدولة العثمانية عن جزيرة قبرص، وكان ذلك سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م.

ثم انطلق الأسبان إلى مدينة تونس، واحتلوها مدة ثمانية أشهر إلى أن استردها سنان باشا في آب ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م، ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، ليتولى ولده مراد الثالث الحكم.

نشط السلطان مراد (٩٨٢- ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤- ١٥٩٤م) إلى الخلاص من إخوته الخمسة لينفرد بالحكم، وامتاز عهده بعقد المحالفات مع فرنسا والبندقية وإنكلترا مع منح الامتيازات التجارية لرعايا هذه البلاد، ولما توفي سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، كانت القوات العثمانية تتقهقر أمام قوات أمير الأفلاق الملقّب بالشجاع، الذي استرد عدة مدن مهمة، ودخل مدينة بخارست عاصمة رومانيا.

ثم تولى السلطان محمد خان الثالث (١٠٠٣-١٠١٢هـ/ ١٥٩٤- ١٦٠٣م) الحكم بعد وفاة أبيه وسعى إلى الخلاص من إخوته خنقاً قبل دفن أبيه، حباً في الانفراد بالحكم. لم يكن ذلك السلطان ميالاً إلى الخروج بنفسه إلى الحروب، وإنما ترك تلك المهمة للصدر الأعظم سنان باشا، لكنه اضطر إلى قيادة الجيوش بنفسه وفتح قلعة أرلو المجرية، وفي سهل كرزت انتصر انتصاراً ساحقاً على قوات المجر والنمسا، وذلك سنة ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م.

وفي عهده هبت ثورتان عاصفتان: الأولى ثورة فرقة العلوفة جي، وهي فرقة في الجيش العثماني بقيادة قره يازجي كان السلطان قد نفاها إلى الأناضول وتم الخلاص منها بتولية مشعلها على البوسنة سنة ١٦٠٣م/ ١٠١٢هـ، أما الثانية فهي ثورة الخيالة الذين طالبوا الدولة بأن تقطع لهم بعض الإقطاعات، ولما رفضت الدولة عرضهم نشطوا إلى نهب المحال والمساجد، لكن الإنكشارية استطاعوا التغلب عليهم وإلزامهم طاعة الدولة.

ثم لقي السلطان ربه في رجب ١٠١٢هـ/ مايو ١٦٠٣م.

تولى الحكم السلطان الصغير أحمد خان الأول (١٠١٢-١٠٢٦هـ/ ١٦٠٣-١٦١٧م)، واكتفى بأن حجب أخاه مصطفى عن الأنظار، وانتهز الشاه الكبير عباس الصفوي الفرصة لاسترجاع ما ضاع من أملاكه واستولت عليه الدولة العثمانية، فانطلق واستولى على تبريز ووان وغيرهما، ثم عقد الصلح بين الدولتين سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م، كما تجددّت المحالفات بين الدولة العثمانية ودول أوروبا، ولم يلبث السلطان أن توفي سنة ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م بعد أن أوصى بالملك لأخيه مصطفى خان الأول الذي كان محجوزاً بين الخدم والجواري فلم يعرف شيئاً عن السلطنة، عاد السلطان المحجوب عن الأنظار إلى الأضواء وسنّه ست وعشرون سنة، لكنه لم يستطع القيام بأعباء

السلطنة لجهله بتصريف الأمور، فلم يمكث على العرش غير ثلاثة أشهر، ثم عزلته الإنكشارية ومفتي الديار، وأقيم مكانه ابن أخيه السلطان عثمان خان الثاني بن السلطان أحمد (١٠٢٦-١٠٣١هـ/ ١٦١٧-١٦٢١م)، وما كاد يتولى ذلك السلطان مقاليد الأمور حتى عمد إلى الخلاص من أخيه محمد بالقتل، وإلى إشهار الحرب على مملكة بولونيا لفتحها وجعلها فاصلاً بين أملاك السلطنة وأملاك الروسيا، والأدهى من ذلك أنه أمر بتقليص نفوذ المفتي، فثارت الإنكشارية وطالبت بوقف الحرب، وما لبث الصلح أن عقد عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م، ثم سعى السلطان إلى الخلاص من الإنكشارية؛ فأمر بحشد جيوش جديدة فسارع الإنكشارية بعزله سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢١م، واقتادوه إلى إحدى القلاع وأعدموه، ثم أعادوا السلطان مصطفى إلى العرش.

وبذلك صارت السلطنة ألعوبة في أيدي الإنكشارية؛ فهيمنوا على الأمور حتى لقد عزلوا السلطان مصطفى مرة أخرى، ولم يمكث على سرير الملك غير سنة وسبعة أشهر.

هكذا ضعفت شوكة السلطنة وضاعت هيبتها، وها هو الشاه عباس الصفوي ملك فارس ينتهز الفرصة ويسرع باحتلال بغداد أثناء تنصيب مراد

الرابع سلطاناً (١٠٣٢-١٠٤٩هـ/ ١٦٢٢-١٦٣٩م) ولما أراد مراد استعادة بغداد وحاصرها مدة طويلة تذمر الإنكشارية فرفع الحصار عنها، ثم هاج الانكشارية وقتلوا الصدر الأعظم سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م. تربص السلطان بالإنكشارية وأمر بقتل من شارك في اغتيال الصدر الأعظم فانكسرت شوكتهم.

حاول مراد الرابع أن يحذو حذو جده سليمان القانوني في الفتح، فاسترجع بغداد سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م.

ثم صالح شاه فارس السلطان مراد سنة ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م، ولم يلبث مراد الرابع أن لقي ربه، فتولّى أخوه إبراهيم الحكم (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/ ١٦٣٩-١٦٤٨م)، وحارب القازاق وانتصر عليهم وفتح جزيرة كريت، ثم طمح إلى التخلص من الإنكشارية في ليلة زفاف إحدى بناته، لكنهم قتلوه خنقاً في آب ١٦٤٨م/ ١٠٥٨هـ.

تولى السلطان محمدالرابع بن إبراهيم (١٠٥٨-١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨-١٦٨٧م) الحكم وهو في السابعة، وسرعان ما عمّت الفوضى، وظل الحال على ذلك المنوال إلى أن تولى الوزارة محمد باشا الشهير بكوبريلي سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م، وقد سارع بالإجهاز على خلق كثير من الإنكشارية

وشنق بطريرك الروم لضلوعه في الفتنة، ثم انطلق بجيش العثمانيين فاسترد كثيراً من الجزائر والثغور من قبضة البنادقة.

وفي عصر ذلك السلطان تم فتح قلعة نوهزل ١٠٧٤هـ- ١٦٦٣م، وكانت ضمن أملاك البنادقة، فهاجت أوربا وسرعان ما بعثت جيوشها المتحالفة من فرنسا والنمسا، لكن استطاع العثمانيون التصدي للهجمات الأوروبية إلى أن وقع الصلح ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م.

لكن النمسا نقضت الصلح، وتواصلت حروبها مع الدولة العثمانية إلى أن حاصر السلطان محمد الرابع عاصمتها سنة ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م، وكاد أن يستولي عليها، بيد أن جيوش أوربا تحالفت ضده وهزمت جيش الخلافة، ثم وجّهت وجهتها إلى القضاء على الدولة العثمانية فاستردت معظم مدن اليونان من حوزة الدولة.

ولم يلبث جيش العثمانيين أن انهزم في آب ١٦٨٧م في سهل موهاكز، ثم عزل السلطان محمد في تشرين الثاني من العام نفسه ١٠٩٩هـ، وتولى بعده أخوه سليمان الثاني.

ونمضي في مسيرة التاريخ إلى أن نصل إلى عهد السلطان أحمد الثالث (١١١٥- ١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م) الذي أراد فتح بلاد جديدة ليعوّض

ما خسرته الدولة العثمانية من ولايات في حروبها مع أوربا، فاحتلت جيوش العثمانيين أرمينيا وبلاد الكرج، ثم استقر الرأي على احتفاظ الدولة العثمانية بما احتلت من بلاد، وأن تحتفظ الروسيا بما ملكته من أملاك دولة فارس وذلك ١١٣٧هـ/ ١٧٤٢م..

وسرعان ما أغار شاه فارس على الدولة العثمانية، ولما تقاعس السلطان أحمد عن حربه عزله الإنكشارية ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، وانتصر العثمانيون نصراً رائعاً على الفرس في عدة مواقع حربية إلى أن أبرم الصلح بين الطرفين ١١٤٠هـ/ ١٧٣٢م، لكن حدث أن انتصر أكبر ولاة دولة فارس واسمه نادر خان على الدولة العثمانية وحاصر بغداد، ثم ظلّت المناوشات بين الدولتين إلى أن تم الصلح بينهما على أن تتخلى الدولة العثمانية عما استولت عليه من الولايات الفارسية.

ثم قامت الحرب بين الدولة العثمانية من جهة، وبين روسيا وحليفتها النمسا من جهةٍ ثانية، واستطاعت الدولة العثمانية الانتصار على النمسا وألجأتها إلى الجلاء عن الصرب ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م، فأسرعت النمسا إلى طلب الصلح فانعقد ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م، كذلك صالحت الروسيا الدولة العثمانية سنة ١١٥٣هـ- ١٧٤٠م، وذلك في عهد الخليفة محمود خان الأول (١١٤٣-١١٦٨هـ/ ١٧٣٠-١٧٥٨م) وخليفته مصطفى خان الثالث.

وفي عام ١٧٥٤م توفي الخليفة محمود الذي كان له الفضل في استعادة هيبة الدولة في عيون العالم، واتسعت رقعة دولته بآسيا وأوربا.

ونصل إلى عصيان علي بك الكبير والي مصر ومحاولته الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بمصر وذلك ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، زمن السلطان مصطفى خان الثالث (١١٧١-١١٨٧هـ/ ١٧٥٧-١٧٧٣م)، وحالف الروسيا وضاهر العمر والي عكا، واتفق الثلاثة على محاربة الدولة العثمانية، وبالفعل انتصروا على الدولة خارج مدينة صيدا، لكن محمد بك أبا الذهب هزمهم وأسر علي بك وقطع رأسه وأرسله إلى القسطنطينية.

وتم الصلح بين العثمانيين والروس زمن الخليفة عبدالحميد الأول ابن السلطان أحمد الثالث (١١٨٧-١٢٠٣هـ/ ١٧٧٣-١٧٨٨م) وتفرغت الدولة للإصلاحات الداخلية وبناء سفن جديدة للأسطول، وأوعزت إلى محمد بك أبي الذهب بمحاربة ضاهر العمر إلى أن ألجأه إلى الفرار حيث قتل وتخلّصت الدولة من شره بالإضافة إلى الاستيلاء على عكا.

لكن روسيا احتلت القرم، واضطرت الدولة إلى الاعتراف بالأمر الواقع خشية الدخول في حرب معها، بيد أنها اضطرت إلى إعلان الحرب عليها سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٧م، فسارعت النمسا بالانضمام إلى الروسيا ضد الدولة

العثمانية.. فهاجم الجيش العثماني جيش النمسا وهزمه هزيمة منكرة، ولكن وضعت الحرب أوزارها سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م بين الدولة العثمانية والنمسا بمقتضى معاهدة زشتوى؛ لكن استمرت الحرب مستعرة بين الدولة وروسيا إلى أن توصل الطرفان إلى معاهدة ياسي سنة ١٧٩٢م على أن تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن مدينة القرم وبعض الأقاليم ومدينة أوزى، زمن السلطان سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث، والذي تولى الحكم عقب وفاة عبدالحميد الأول سنة ١٧٨٩م/ ١٢٠٤هـ، وانصرف بعد الصلح مع روسيا إلى الإصلاح الداخلي.

لكن المماليك في مصر كانوا قد استبدوا بالأمر هناك، وكان أشهرهم مراد بك وإبراهيم بك وعثمان بك البرديسي.

وظل الحال على هذا المنوال إلى أن أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى الشرق لاحتلاله.